والسحر الذي به يستخدم الساحر بالفواعل التي فوق الطبيعة قد تولد عن هذا النوع البسيط والادلة على ذلك كثيرة . فالاولون لم يكونوا يفرقون كثيراً بين الحي والميت ولذا يرجح انهم اعتقدوا ان التأثير فيهما واحد . فاذا كان امتلاك جزء من جسد الحي يتيلهم قوة عليه قالوا ايضاً قوة على الميت اذا امتلكوا جزءاً منه . وقد تقدم معنا ان بعض المتوحشين يحتفظ بعظام موتاهم وشعورهم لاحياجهم اليها وقت القيامة ومن هذا يستدل على اعتقادهم ان من امتلك شيئاً من بقايا الميت كان له سلطة لاكراهه والحاق الضرر به وهذا هو سر الطلاسم واصلها بقايا اجساد بشرية. فسحرة بيرو القدماء كانوا يحتون عظام الميت ويذهلون كل سكان البيت به كما روي عنهم . وسنة ١٦٠٤ سنّ البارلمنت الانكليزي قانوناً يقضي بعقاب الموت على من يخرج جثةً من مدفنها لاستعمالها في السحر

والسحر وعمل العجائب من نوع واحد والفرق بينهما نسبيٌّ فاذا كان العمل لنفع المرء عدّهُ عجوبة واذا كان لضرره عدّهُ سحراً

وخلاصة ما تقدم ان الاولين كانوا يعتقدون بان ارواح الموتى تدخل اجساد الاحياء وتسبب التشنجات والجنون والمرض والموت . ثم ارتقى هذا الاعتقاد فصاروا يعتقدون أن الارواح المذكورة هي قوى تفوق الطبيعة وانها على نوعين نافع وضار الاول يسترضى بالصلوات ويطلب منهُ القوة والوحي والعلم والثاني يكرهُ ويخرج من الجسد بوسائط مختلفة ويستعان بعوذ تؤخذ من اجساد الموتى لاجل السحر وعمل العجائب

وهنا سؤال لا مندوحة لنا عن النظر فيهِ وهو انهُ اذا كانت الارواح تضر اعداءها وتنفع اصدقاءها افلا يجب على الانسان ان يترضاها ويعيش معها بسلام استدراراً لخيراتها ودفعاً لمضراتها . هذا بحث واسع وسيأتي الكلام عليهِ في عدد آخر

الآداب الصحيحة

مفتاح السعادة والفلاح في العالم

الخطبة التي ألقيت في المدرسة الكلية السورية الانجيلية في بيروت تلاها فيها حضرة اخونا الندي فانوس الحاني في ١٣ يوليو سنة ١٨٩٨

ايها السيدات والسادة الكرام

اذا كان للمرء لذة في الحياة ورغبة وآمال في طول العمر فلهُ لذة اخرى في التطلع الى الوراء ومراجعة حوادث ايامهِ الماضية ولاسيما اذا كانت تلك الايام من اهم ادوار حياتهِ

واسعدها واجلها . فاستحضر في ايها السادة والسيدات ان تطلع تطلع المشتاق الى اهم ادوار حياتي — الى اسعد ايامي واحلاها الى تلك الايام التي قضيتها في اسعد محل وفي اشرف مقام ولاسمى غرض — الايام التي قضيتها في احضان هذه المدرسة الجليلة وبين ايدي حضرة رئيسها الفاضل الشيخ الجليل الدكتور بلس واساتذتي العظام الذين اسعدني وقتي ان اكون عينيّ مرة اخرى برؤيتهم بعد غياب طويل وبين يدي ذلك الشيخ العظيم القدر البعيد الصيت الذي قدّر الزمان ان يوارى جسمهُ اللطيف عن عيان محبيه ولكن لم يقدر ولن يقدر ان يواري آثارهُ الجليلة ذلك الفيلسوف العظيم الدكتور فان ديك

نعم ايها السادة كان حقل صباي سعيدًا فرُضعت لبان المعارف في هذه المدرسة الشهيرة حتى جاء وقت الفطام في مثل هذا اليوم من عام ١٨٧٤ فوقفت المرة الاخيرة على هذا المنبر وكان ذلك يوم الوداع فودعت كما يودع الفطيم صدر امهِ والدموع تدمي المقل وودعني كما تودع الام فطيمها والقلب يخفق اشفاقًا على ما سيكون مصير الفطيم بعد ان يُولّى امر نفسهِ ويبادها ومضت على ذلك الاعوام حتى جاء هذا العام فذكرتني الامُّ فطيمها ودعتني للوقوف مرة اخرى على هذا المنبر فلبيت الدعوة وانا جذل حنانًا الى ذلك الصدر الرحيب مصدر قوتي

فاشكر الله على هذه النعمة واشكر اساتذتي على هذه المنة وليعلم اساتذتنا الافاضل ان ليست هذه اول مرة رددنا لهم فيها آيات الشكر وذكر ما لهم من الفضل والاجر فان فلاح المتخرجين من بين هذه الاسوار وآدابهم الصحيحة لأعلام خافقة تنطق بفضل هذه المدرسة العظيمة بل وبرهان ساطع على ان الآداب الصحيحة مفتاح الفلاح في هذا العالم بل لها العالم مدينون بخيروته وطيبتها يعتو ولدانها يدنو كأنهُ طوع بنانها وعبد احسانها . نعم يا سادتي الآداب الصحيحة مفتاح الفلاح في هذا العالم وهذا هو موضوع خطبتي اليوم هذا هو الشيد المطرب الذي ارجو ان انشدهُ في آذان رفقائي بل اخواني في الرضاع هؤلاء الشبان النجباء الذين تزودوا من ذخائر هذه المدرسة العظيمة بالمعارف والآداب وتهيأوا لولوج ادوار الحياة على انواعها ليعملوا في العالم ويعمل العالم بهم وانا راجٍ ان اكون مصيبًا في اختيار هذا الموضوع في هذا المقام العظيم

الآداب الصحيحة او الفضائل الفاظ تدل في الحقيقة على معنى واحد وهذا المعنى الذي يرتسم فورًا في الاذهان عند النطق بالفاظهِ ويمثل فيها جميعها على انواعها ودرجاتها شكلاً واحدًا مخصوصًا — هذا المعنى البسيط في شكلهِ البديهي في صورتهِ كان تحديدهُ ووصفهُ وتكييفهُ والبحث عن مصدرهِ الشغل الشاغل للفلاسفة الاقدمين ولم يزل الشغل الشاغل

من ذلك بكثير حيث جعل كثيرون من فلاسفة الاديان تعذيب الانسان نفسهُ باشد العذابات بل اماتتها باقطع الميتات من مراقي الفضيلة كأن وجود الانسان في الكون امر مجس بل امر فظيع يستوجب العذاب المستمر تأديباً على هذا الوجود وقد افضت تعاليم فلاسفة البراهمة في الهند بالانقياء والمتعبدين واهل الفضيلة من الطائفة المسماة بطائفة الفقراء الى ان يقضي المتعبد منهم ايام حياتهِ في قفص من حديد وهو مكبل نفسهُ بالسلاسل والاغلال تكفيراً عن الحياة الدنيوية

وبعضهم يربط يديهِ ورجليهِ وينقلب على رأسهِ وطرف قدميهِ على بعد مئات من الاميال تعذيباً للنفس النجسة. وتلك العادة القبيحة المسماة " المرأة الفاضلة " التي كانت تقضي على الزوجات المترملات الفاضلات ان يحرقنَ انفسهنَّ مع اجسام ازواجهنَّ حتى حرق في سنة واحدة وهي سنة ١٨٢٣ في امارة بنغال وحدها ٥٧٥ امرأة . ولم تخلُ الانسانية من قيود هذا الوهم الغريب وتسلم من هذه العادة القديمة الاَّ في سنة ١٨٢٩ حينما وضع اللورد وليم بنتنك قانوناً قاضياً باعتبار هذا الفعل قتلاً والمساعدين فيهِ مشتركين في القتل

فيا للعجب العجاب منك ايها الانسان عاشق الاوهام وعبد الترّهات كيف تتسربل بثوب الحداد في هذا الوجود وهو يكسو قمتهُ واعاليهُ ببياضهِ الناصع وتتقطب سيف وجههِ حاجبيك وهو يصافحك باسرة بارقة وثغور باسمة ولم تصقل قديمك بعراقيب الجبال وتحبس مسارح عينيك في القفار والرمال وقد بسط الوجود لك رياضهُ الناضرة وجناتهِ الزاهرة لتسرح فيها وتمرح بين ازهارها ورياضها ولتسبح وتمجد رب هذا الوجود

اعبثاً خلق الله جمال هذه الطبيعة ولمن اوجدها — اضاعت حكمة الذي تتعبد في تقواهُ وتزهد لتنال رضاهُ حتى اخطأ مهمهُ غرضهُ (استغفر الله عما يقولون)

كلاَّ ثم كلاَّ ايها الانسان انما الله اقام هذا الكون بجمالهِ وكمالهِ خادماً بين يديك والفضيلة سراجك الذي يهديك الى ما حسن وطاب من اطايبهِ فاملأ عينيك بنور الفضيلة وسرح طرفك ما شئت في رياض هذا الوجود وجناتهِ واقطف من ازهارهِ واجنِ من اطايب ثمارهِ ومجد الخلاق الذي براهُ في صورة حسن وجمال وقل مع النبي داوود " حقاً ان وصايا الرب مستقيمة تفرح القلب امر الرب طاهر ينير العين احكام الرب احلى من العسل وقطر الشهاد "

يظهر ايها السادة انهُ رغماً عن تقدم عصرنا هذا تقدماً باهراً في كل شيء لم تزل آثار من اللبس والوهم متعلقة باذيال الانسان فقد قرأت من عهد قريب سؤالاً موجهاً من شخص الى المسيحيين مدرجاً في جريدة انكليزية اسمها الشاب صادرة في شهر مارس الماضي وهذا نصهُ

"يشاء كثيرون من الناس بهذا السؤال أيمكن للانسان ان يشترك في مزاحمات الاعمال ويبقى مسيحياً يمكن للانسان ان يصير تاجراً او محامياً او ميكانيكياً ومع ذلك يحب الله ويحب قريبه كنفسه"

عند ما يتأمل الانسان في هذا السؤال الموضوع لاحتمال الايجاب والسلب جواباً ويتصور وجهة النفي يخال لهُ ان الفضيلة والآداب نصيب اهل الكسل والبطالة دون رجال الكد والعمل في العالم فيشولاد الفزع واياس ان كان من رجال العمل والنشاط وتبرق اسرتهُ ارتياحاً ان كان من اهل الكسل والبطالة اما نحن فنقول ان لرجال العمل نصيباً بل لهم اذا شاؤا النصيب الاوفر من الآداب الصحيحة بل ان الفضيلة او الآداب الصحيحة مفتاح السعادة والفلاح في العالم بل ان الفضيلة هي الطريق الامين للسعادة والفلاح في العالم. ولا يظهر هذا القول صحيحاً راجحاً على ما يخالفهُ الاَّ بالادلة والبراهين وهذا هو الذي نسعى اليهِ في هذا الموضوع

ان الناس في عالم الحقيقة مختلفون في الاغراض التي يرمون اليها وكلهم لا يخرج عن طلب واحد من المطالب الآتية

(١) تحصيل اللذيذ والذكر الحسن

(٢) مجرد القيام بالواجب

(٣) تحصيل الثروة

(٤) تحصيل الجاه والنفوذ

وقد يكون غرض الانسان واحداً او اكثر من هذه الاغراض الاربعة. اما الغرضان الاولان وهما تحصيل الذكر الحسن ومجرد القيام بالواجب فلا يقصدهما طبعاً غير اصحاب الفضائل والآداب الصحيحة ولهذا يكون من تحصيل الحاصل القول بان الآداب الصحيحة طريق هذين الغرضين اذ لا خلاف في ذلك كما ترى

اما الخلاف فهو بلا ريب محصور في الغرضين الاخيرين اي تحصيل الثروة وتحصيل الجاه والنفوذ

اما عن الغرض الاول وهو تحصيل الثروة فقد يمكن ان تحصل الثروة بصدفة مخصوصة بلا عمل ولا فكر ولا كد ولا تعب وهذه ليست طريقاً لتحصيل الثروة كما لا يخفى بل صدفة من صدفها قاصرة على من قُدِّرت لهُ فهي خارجة عن موضوعنا لانا انما نبحث على الطريق لتحصيل الثروة لا عن الصدف فقد يمكن كما يروى في الاقاصيص مثلاً ان يكون شخص مسافراً في

مفازة ثم تكسر رجله في موضع من المواضع ويجد في ذلك الموضع كنزاً او بئراً للريح فلا يمكن ان يقال ان كسر الرجل هو من طرق تحصيل الثروة وقل من يرضاه طريقاً لذلك

وكذا يقال عن الصدف الكثيرة التي تصادف فريقاً من الناس فتغنيهم بلا عمل. واخراجاً لهذه الصدف سميناها هذا الفرض تحصيل الثروة اشارة الى القوة التي يصرفها الانسان للحصول بفعله على الثروة لا بالصدف الخارجة عن دائرة الاعمال. ولا سبيل لتحصيل الثروة من طريق الاعمال الا من اجتماع امرين

الاول — الكسب

الثاني — الاقتصاد

فبالكسب والاقتصاد تبتدئ الثروة وكلما زادا زادت معهما فالبحث عن طريق الكسب والاقتصاد هو البحث عن طريق تحصيل الثروة

اما الكسب فمن اسبابه ومعدداته ما هو مشترك بين جميع الاعمال على انواعها ومنها ما هو خاص بكل عمل منها. ويمكن حصر الاعمال في انواع اربعة

(١) الفنون (٢) الصنائع (٣) التجارة (٤) الزراعة

اما اسباب الكسب التي تشترك فيها هذه الانواع كلها فهي النشاط والثبات والاهلية وهذه وان كانت في ذاتها من الخلال الحميدة غير انها ليست من اركان الآداب الصحيحة حيث نرى كثيرين من اهل الشر والفساد الذين لثن البشرية في وجودهم عادهم في اعمالهم النشاط والثبات والاهلية بل ان نشاطهم وثباتهم هما اللذان يرعبان فرائص الهيئات الاجتماعية ويهولانها ولذا يكون من الانصاف ترك القوات المشتركة بين خدمة الفضيلة والرذيلة من موضوع البحث طلباً للحقيقة من طريقها البسيط لا من طريق الجدل والمحاولة

اما اسباب الكسب في الفنون فيمكن حصرها في دائرة سبب واحد هو ثقة الجمهور فكلما عظمت ثقة الناس بذي فن كثر تزاحمهم عليه فيعز وقته ويغلو ثمنه فيزداد كسبه. ولا سبيل لهذه الثقة بصورة ثابتة الا اذا كان صاحب الفن مع مهارته في فنه قائماً بواجبات الفن صادقاً في المعاملة حسن السيرة والآداب في المعاشرة. ولا يخفى ان القيام بالواجبات يستدعي التفرغ لها غيرة على مصالح اللاجئين الى اهل الفن ولا يكون ذلك الا من ذوي الضمائر الحية الذين يعملون لخير غيرهم كما يعملون لخير انفسهم لا يشغلهم عن ذلك شاغل من المشاغل الكثيرة التي تسلب عقول ذوي الآداب الفاسدة وتستعبد لبابهم واوقاتهم فتذبل مهارتهم في الفن وتموت ملكاتهم كما يذبل النبات الطيب النافع ويموت اذا احاطت به نباتات ردية

وامتصت جذورها غذاءه. واذا سرحتم الطرف قليلاً بين رجال الفن الواحد المتماثلين في الاهلية رأيتم عظم الفرق بين ذوي الآداب الصحيحة منهم وبين ذوي الاخلاق الفاسدة فبينما اولئك يحرصون كل الحرص على اوقاتهم ويضنون بها على غير النافع محافظين على الثواني قبل الدقائق لخدمة فنهم وقيامهم بواجبهم لا يشغلهم عنه شاغل نرى هؤلاء يقتلون اوقاتهم الثمينة العزيزة في مشاغل الفساد مضيعين المصالح الموكولة بين يديهم لقضاء مطالب اخلاقهم الفاسدة واذا اضفنا الى ذلك تشتيت افكارهم في تلك المشاغل الكثيرة وما يطرأ على قواهم البدنية والعقلية من الوهن والضعف الملازمين لذوي الاخلاق الفاسدة علمنا انهم لا بد ان تقصر خطواتهم يوماً بعد آخر عن بلوغ الذين يسيرون في سبيلهم بالنظام والترتيب الملازمين للآداب الصحيحة . واني عند ما اقول هذا يا سادتي تجري امام حافظتي وعيني الصور والمشاهدات الكثيرة فما كأني في قولي الا شارح لحالات تلك الصور والمشاهدات في ادوارها

اذكر شابين ذكيين انيسين تعلما فنّاً فأتقناه ومارساه عملاً بنشاط واخلاق كاملة فاحسناه وطار صيتهما وعظمت مكانتها واقبال عليهما الكسب كاقبال المهمر المجمعارة تذكر حتى خالهما الحظ فزلت بهما القدم عن جادة الفضل والآداب الصحيحة فغيرا ما جماه يفضل الآداب الصحيحة وبعد ان كانت اغصان مستقبلهما ناضرة اوراقها . عاطرة ازهارها . كالشجرة المغروسة على تجاري المياه تفيها الفساد بريحه الصرصر فذبلت الاوراق الناضرة وتناثرت وذوى غصن المستقبل الوطيب وأكفهرّ وجه السعادة فودعت . وكم من بدور وشموس في نوابغ الهيئات البشرية خسفت وكسفت بمثل هذه العثاوات الفاسدة فحجبت وحبست نور عقولهم وأضمت جواهر مداركهم فخفيت في طي العدم كأن لم تكن

والنتيجة يا سادتي ان قيام ارباب الفن بواجبات فنهم يقوى بقوة آدابهم الصحيحة ويضعف بضعفها ويموت بموتها

اما الصدق والاستقامة فلا غنى عنهما ابداً لنجاح ارباب الفنون فهما اعلام شهرتهم كلما علت وخفقت توجهت اليها الابصار وخفقت بخفقانها القلوب فاستعبدت لها طائعة راضية تكن وتحرك باشارتها وهذا هو لباب الثقة العظمى ولا غرابة في ذلك لان الامال اذا تجردت عن العوامل والاغراض مالت من طبعها الى الفضيلة واهلها بين الكاذبين وعدي الاستقامة هم الذين يتعبدون اكثر من سواهم التعبد الحقيقي لاهل الصدق والاستقامة علماً منهم وخبرة بما وراء رذائلهم من الضيم والاذى وما وراء الصدق والاستقامة من الخير والهناء . وهذا امر طبيعي تبدو حقائقه حتى في الاطفال الرضّع فان الاطفال انما ينفرون في معاشريهم ويستلمون

لهم اذا عهدوا منهم الاخلاص فاذا بدا من احدهم غير الاخلاص ولو مرة واحدة نفروا منه ومالوا الى البعد عنهُ ولا بدَّ ان الاباء والامهات من المشرفين اليوم اختبروا ذلك كل الاختبار

مرض ابن لي في الشهر الثالث وهو في الشهر السادس عشر من عمره وكان قبل مرضه يحبني ويثق بي راضيًا غير جزع في كثير من الامور التي يجزع منها الاطفال عادة مثل قص الشعر وما يماثلهُ فلما مرض ووصف الطبيب لهُ الدواء كنت اخالطهُ واعطيهِ الدواء في كاس الماء عند ما يطلب ماء وكان يأخذهُ ويحبهُ ولما تكرر ذلك مني مرارًا ادرك الامر فجعل مني ولم يعد يقبل من يدي شيئًا ابدًا — ولم ذلك لان ثقتهُ باخلاصي وصدقي ضعفت بل ضاعت بل الحيوانات انفسها تألف بعض الناس دون البعض بقدر ما تشاهد فيهم من علامات الاخلاص وقلتها وعدمها

ولو تأمل الانسان قليلاً في ما يجري حولهُ لشاهد الناس كلهم عيونًا شواخص بعضهم الى بعض وعند ما يفتكر انسان في شخص تمرُّ مع صورته اطوارهُ واخلاقهُ وصفاتهُ واعمالهُ المسجلة في محفوظات الذاكرة كما تسجل سوابق المحكوم عليهم مع اسمائهم في سجلات الحكومة. وبحسب نوع هذه الاطوار والاخلاق والصفات يوجد في النفوس شعور تخصوص نحوها يختلف باختلافها ان حسنًا فحسن او قبيحًا فقبيح وهذا الشعور هو حاكم العواطف المدبر لها في جميع المعاملات او بعبارة اخرى هو دفة سفينة الثقة المشحونة باخبارات لمستخفيها ولقد صدق المثل القائل من سمَّاك اغناك

عرفت بعض اخواني المحامين اشتهروا بالصدق والاستقامة والاخلاص فامتلكوا ثقة الناس وفي امتلاك حتى اذا اشاروا على متَّهم بالقتل ان يعترف بجريمته اعترف بها بلا تردد ولا سؤال

ورأيت من عهد قريب طبيبًا ماهرًا في طب الاسنان قصد احدى المدن وبعد قليل ذاعت مهارتهُ وطارت شهرتهُ في فنه فتقاطر الناس عليهِ افواجًا ثم كان جالسًا ذات يوم مع رفاق فاخذتهُ هزة العجب بنفسهِ وشهرتهِ فقال اني اذا قرأت في اي كتاب صفحتين او ثلاثًا بضع دقائق حفظتها غيبًا وطلب من الحاضرين المراهنة على صدق ما قال فخافوا من الرهان ظنًّا بحقيقة الامر ولكنهم احتالوا عليهِ ليريهم قوة ذكائه بغير رهان فطفق يقرأ قطعة من جريدة ويعيدها مرات في خلال عشرين دقيقة ولما استعموهُ لم يستطع ان يتلو شيئًا منها بغير غلط وغلط كثير — وهذه المسئلة لا علاقة لها بصناعة ذلك الطبيب اصلاً ولا رابطة بينها وبين فنهِ لكنها اطفأت شعلة شهرتهِ ونزلت مقام اعتبارهِ بين اولئك الناس فاحتقروهُ وضعفت

تقتضيه بالوانه ومواعيده لولا عدمه وفي عنه بصفقة المغبون

والنتيجة ان الصدق والاستقامة من عوامل النجاح الجوهرية التي لا غنى عنها واذا رافقت هذه العوامل اللطف وحسن المعاشرة زادت قوة فوق قوة وسهلت ذا سبيل الحركة والظهور كما يسهل الزيت حركات الآلات الميكانيكية المعقدة ويلطف احتكاكها فتزيد سرعتها وتطول سلامتها

ولقد جمع كتاب سر النجاح الذي ترجمه حضرة العالم الفاضل الدكتور صروف امثلة كثيرة من شواهد فعل الادب واللطف في تقدم اصحابه . منها ان فرنكلين الاميركي نسب نجاحه العظيم الى حسن آدابه لا الى قوى عقله ولا الى فصاحة لسانه . ومنها ان اسطفانوس الكولوني لما وقع في يد خصومه سألوه على سبيل التهكم اين حضنك المنيع فوضع يده على قلبه وقال "هنا" . ومنها ما قاله الورد ارسكن المشهور باستقامة السيرة وعلو الهمة اني اجتهدت منذ نعومة اظفاري في فعل كل ما حثني عليه ضميري تاركاً النتيجة الى الله تعالى فلم اندم على ذلك ولم يخفق منه اذى ضرر بل وجدته طريقاً للنجاح والغنى وساؤدب اولادي فيه ايضاً

هذه وسائل الكسب عند ذوي الفنون بسطناها وكلها قائمة على الآداب الصحيحة كما رأينا اما وسائله واسبابه عند ذوي الصنائع فهي الاتقان ورخص الثمن فكلما توفرت هذه في صناعة صانع اقبل الناس على مصنوعاته وراجت فكثرت ارباحه بكثرة مبيوعاته

ولا يخفى ان الاتقان يستدعي التفرغ للعمل كتفرغ ذي الفن لفنه الذي تكلنا عنه . وما قلناه عن تأثير مشاغل الاخلاق الفاسدة في اضاعة الاوقات الثمينة ينطبق ايضاً على حال الصانع فهي لم اسباب عطل ولعنة وعكسها الآداب الصحيحة التي تصون اوقات ارباحها من الضياع فهي اسباب رواج وبركة ويمكن مشاهدة الفرق البليغ بين الحالتين اذا نظرنا الى شخصين متشابهين في الاهلية مختلفين في الاخلاق اخلاق هذا فاسدة واخلاق ذاك فاضلة رأينا بوناً شاسعاً بين الاثنين وكما تفرغ الصانع لعمله خفت عليه نفقات صناعته بالملاحظة والتدبير وتوفير الوقت فاستطاع بذلك ان يباري سواه برخص الثمن ودقة الصناعة وفي هذا كل الربح والكسب

واذا نظرنا الى المخترعين والمستنبطين الذين اغنوا العالم بثمرات اختراعاتهم وجدناهم بلا ريب من اهل الآداب الصحيحة والافكار السامية عن اخلاق الدنيئة ويكفي الاشارة الى ما جاء في كتاب سر النجاح من سير المخترعين العظام لمن يريد تفصيلاً

واما التجار فراس مالهم في الحقيقة الصدق والاستقامة ان حافظوا عليهما حافظوا على ثروتهم يزيدونها وان اضاعوها اضاعوا ثروتهم وبددوها . ولا يعوزنا معرفة حقيقة ذلك الا الاستشهاد بمواطننا وميالنا ثم نقيس عليها عواطف الاخرين وميالهم فاذا قصد احدنا ان يشتري سلعة من السلع لا يقصد الا التاجر المشهور بالصدق والاستقامة خوف الغش واذا وقع الخيار بين تاجرين مشهورين بالصدق والاستقامة وكان احدهما فظ الاخلاق والآخر اديبا لطيفا فُضّل هذا على ذاك بالطبع وهكذا كلما زادت آداب التاجر حسنا زادت بضاعته رواجا . وليس ذلك فقط بل ان التاجر المشهور بالصدق والاستقامة لهُ مصدر آخر للكسب لا يملكهُ سواهُ وهو ان ثقة الناس به تقلل المساومة معهُ في الاثمان فيسهل البيع والشراء وبسهولتهما يقل عدد العمال وتخف عليه النفقات فيزداد الربح

كانت ارض مصر من عهد طويل عامرة بالتجار الذين لا يعرفون مزايا الصدق والاستقامة ثم جاءها رجل فرنسوي اسمهُ بسكال وفتح محلاً تجاريًا وكتب عليهِ ان الاثمان محددة فكان الراغبون في الشراء من بضائعه يجمعون من هذه العبارة ظنًّا منهم انهُ انما يطلب ما يريد من الاثمان ولا باب لهم للمساومة ولكن هذا التاجر الغربي حافظ على مبدإهِ حتى وقف الناس على امرهِ وعرفوا ان اسعارهُ يرضى بها البائع والشاري معًا ولا يغبن احدهما ولا يضاع الوقت عبثًا فعمَّ الناس مخزنهُ وتزاحموا عليهِ فجنى من صدقهِ ثروة طائلة ثم رغب في الراحة من عناء الاعمال فباع محلهُ واسمهُ بثمن طائل وفارق ارض مصر جسماً ولكن الاسم لم يزل باقيًا ينبوع ثروة للخلف . ولما رأى التجار الآخرون مزايا ذلك حذوا حذوهُ وهم الآن يزيدون يومًا بعد يوم في اتباع خطتهِ ولا بد ان يأتي يوم تكون فيهِ كل بيوت التجارة على هذا النمط المفيد للبائع والشاري معًا ضنًّا باوقات الناس الثمينة

ويمكني ان اقول واجزم في القول انهُ اذا نجح تاجر يومًا فلا بد ان يكون مصدر نجاحهِ الآداب الصحيحة والامثلة على ذلك كثيرة

رأيت شابين سوريين منذ عشرين سنة في دكان صغير جدًّ في سوق يقال لهُ الخرنوي بالقاهرة لا يزيد رأس مالهِ عن بضع عشرات من الليرات ثم بعد عشر سنوات اخرى رأيتهما في دكان آخر اكبر من ذلك خمسة اضعاف وهذا الدكان الاخير اخذت جوانبهُ تتسع وتمتد حتى صار اليوم اعظم محل تجاري للاقمشة في ارض مصر — واذا دخلهُ الانسان اول مرة ادرك فورًا ان سر نجاح صاحبيهِ الصدق والاستقامة المقرونين بالآداب واللطف والبشاشة فانهما يقابلان الشاري كانهما خادمان بين يديهِ فيحملان بايديهما ما يبتاع بادب ولطف طبيعيين

وكما تجلت ذينك الشابين في دكانهما الصغير اذهلني فعل الصدق والاستقامة واللطف والادب في حياة الناس ومستقبلهم وسجد قلبي خاشعاً احتراماً لعظمة الآداب الصحيحة مصدر كل بركة وسعادة في هذا العالم — في هذا العالم الذي نحن فيه — في هذا العالم وسط تيارات المفاسد والشرور — وسط جبائل الغش والخداع وسط الكذب والزيغ والفجور

نعم اننا نرى في كثير من الاوقات والاحوال ان كثيرين من ذوي اليسار احرزوا الثروة الطائلة بالغش والخداع ونحو ذلك من طرق الخيانة والسفالة غير ان هذه الوسائل حكمها حكم الصدف في انها ليست الطريق الثابت الامين في تحصيل الثروة واذا نجحت يوماً او اياماً او مرة او مرات بصدف مخصوصة عافية الآثار لا سبيل لاقتفائها لانها خارجة عن دائرة كل علم وتقدير فهي كركوب متن البحار اذا وافقته احوال مخصوصة قطع به الانسان المسافات الشاسعة في اقصر ما يمكن من الوقت ولكنه ليس بالوسيلة الثابتة المأمونة من بوائق الاخطار المقررة لقطع المسافات بالنظام والترتيب المعهودين الموصلة الى النتيجة المقصودة الثابتة والحقيقة بل ان نعمتهم في الحقيقة اشبه شيء بنعمة المقامرين تراهم في كثير من الاوقات يظهر عجيب من النجاح والذهب اوضاح اكواماً بين ايديهم والطالع يخدمهم والابصار ترمقهم ثم ينقلب هذا الحال ويدل بآخر في لمحة بصر فترى الطالع نحساً والثروة العظيمة فقراً مدفعاً والضحك بكاء والبشر عبوساً وكآبة وليس احسن في هذا المعنى مما فعله والدحكيم حين اراد ان يظهر لابنه عاقبة الشر والفساد فقال له وصيته عند موته — يا بني اذا اردت ان تسكر فاسكر ما شئت بعد نصف الليل واذا اردت ان تقامر فقامر مع اقدم المقامرين واشهرهم — فجال الولد في نوادي الزمر ينتظر الميعاد المضروب وشاهد كاسات السرور طافحة من كاسات الخمور حتى اذا جاء نصف الليل ولعبت سورة الكؤوس بازؤوس رأى العقل انقلب جنوناً والرزانة طيشاً والقوة ضعفاً والفصاحة عياً والادب وقاحة والكمال نقصاً والبشاشة عبوساً والسرور كآبة وكوفق فوقف مذعوراً من هذا الانقلاب الغريب واقسم ان لا يذوق الخمرة طول العمر او قصر

ثم طفق يسأل عن اقدم المقامرين واشهرهم فلما وجده رأى فيه رجلاً رث الثياب انهكه سهر الليالي واضناه واسرة وجهه تحدث بما قاساه وعاناه من الاتعاب والاوصاب فنظر راجعاً قائلاً في نفسه لو كان في المقامرة سبيل الثروة والغنى لما اصاب هذا ما اصاب

نعم لا سبيل للكسب احسن من طرقه بالوسائل الصادقة الامينة ذات الاصول والقواعد الصحيحة التي يرشد اليها العقل السليم والضمير الحي الشريف والاختبار الطويل وفي الآداب الصحيحة سر النجاح في كل شيء في ايام العبوس والسعود في الصغر والكبر في القوة والضعف

لا اون تحومها ولا غروب لشموسها مدى الاعصار

بقي علينا امر الزارع فهو كارباب الفنون والصنائع والتجارة في حاجة شديدة الى الصدق والاستقامة لا يقوم نجاحهُ وفلاحهُ الاَّ عليها لان الزارع في حاجة للاستعانة برجال قليلين او كثيرين في اعمال زراعته فان لم يكن صادقاً مستقيماً اديباً لطيفاً نفر الناس منهُ وولوا عن مساعدته فترى زرعهُ متأخراً عن اوانهِ في البذار والحصاد ولا يخفى ما في ذلك من الخسائر

والخلاصة ان الكسب يصير لاهل الآداب الصحيحة في كل عمل منهُ لاهل الاخلاق الفاسدة . وقد قلنا انهُ هو والاقتصاد السبيلان الوحيدان لتحصيل الثروة فبقي علينا الآن ان نتكلم على الاقتصاد

والاقتصاد يا سادتي هو حفظ الزائد عن لوازم الانسان وضروريات فيخرج بهذا التحديد البخل لانهُ تقتير في اللازم والضروري ويخرج بهِ التبذير لانهُ تبديد للزائد عن اللازم والضروري . فالاقتصاد هو التوسط بين التقتير والتبذير او بين البخل والاسراف . والبخل والاسراف كلاهما من ضروب الاخلاق الفاسدة اولها بالنذالة والدناءة والثاني بالطيش والخلاعة والغرور وغيرها من طرق الفساد الكثيرة الاشكال والانواع المفسدة للصحة المذهبة للاموال

فلا سبيل للانسان المسرف الى تحصيل الثروة مهما اكتسب ومهما جدَّ وكدَّ لان اموالهُ اسرع منهُ عدواً واسبق سعياً لا نصيب لهُ في جمعها ولا سهم الاَّ اذا قدر المحال وقبض الخيال . ولقد اجمعت كتب الاديان والآداب الشريفة على تقبيح الاسراف والبخل معاً ونهت عنهما كما نهت عن الآثام والجرائم فاقامت بذلك الاقتصاد غرضاً لاهل الفضيلة والآداب الصحيحة . ولما كان الاقتصاد ركناً من ركني تحصيل الثروة بل هو الركن الاول والكسب في المحل الثاني كانت الآداب الصحيحة السبيل الامين لتحصيل الثروة في العالم وهي بعبارة اوسع سبيل النجاح والفلاح في الاعمال

قلنا قبلاً ان الناس على اختلاف اعمالهم يقصدون غرضاً او اكثر من اغراض اربعة هي تحصيل الثروة وتحصيل الجاه وتحصيل الصيت والذكر الحسن ومجرد القيام بالواجب . وقد بينا ان الغرضين الآخرين هما من مطالب اهل الآداب الصحيحة بلا خلاف وان البحث يكون في الغرضين الاولين وقد بحثنا في سبل تحصيل الثروة وبقي علينا الآن البحث في الغرض الباقي وهو تحصيل الجاه والنفوذ

ستأتي البقية